مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 26 عدد: 7 (رت 69) السنة: 2022

نحو تقويم الفهوم الاعتيادية في فهم مقاصد التجربة الصوفية

Towards the evaluation of the usual concept in understanding the purposes of the mystical experience

أ. نبيل فنقال[1]
جامعة محمد لمين دباغين سطيف -2-
fengalnabil@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/01/26 القبول 2022/09/02 النشر على الخط 2022/11/05
Received 26/01/2021 Accepted 02/09/2022 Published online 05/11/2022

ملخص:

نهدف من خلال هذه الدراسة حول التصوف الإسلامي إلى انبثاق رؤية علمية جديدة تستلهم قوتها من تصور فلسفي معاصر يرتكز على التحليل النقدي البناء، ويعتمد على الدقة والموضوعية من أجل تحقيق الانعتاق الكلي من سيطرة الدراسات الإيديولوجية والتصورات الرجعية للتراث، فالهدف الأسمى يكمن في بناء نسق معرفي يستمد قوته من رؤية مقصدية قيمية لهذا العلم، لتمكين الجيل الجديد من تشرب موفور القيم الروحية والاستشفاء بتجارب وخبرات كبار العارفين والقادة الذين خلّفوا أثرا إيجابيا في تزكية الفرد وبناء الحضارة.

الكلمات المفتاحية: القيم الروحية، التصوف الإسلامي، العرفان، التزكية والسلوك، نظرية المعرفة.

Abstract:

Through this study on Islamic mysticism, we intend to elaborate a full-fledged scientific perspective that derives its strength from a contemporary philosophical perception grounded on constructive critical analysis. This would be achieved through relying on accuracy and objectivity to get free from any authority of ideological studies and reactionary and regressive perceptions of the tradition. The ultimate goal is to construct a system of knowledge that derives its strength from a purposeful and valuable perspective of this science to enable the new generation to cherish rich spiritual values, and be inspired by the expertise and experiences of great mystics and leaders who had left a positive impact in illuminating individuals and uplifting civilization.

Keywords: Spiritual values, Islamic mysticism, gratitude, recommendation and behavior, epistemology.

[1] المؤلّف المراسل: **نبيل فنقال** البريد الإلكتروني: **fengalnabil@gmail.com**

مقدمة:

يستدعي الطرح القيمي للتصوف كعلم محايث للفعل التاريخي البناء سواء في التقويم الداخلي للفرد، أم لتجليه الظاهري – حضاريا وسلوكيا – توضيح الرؤية وتوزيع الأدوار حسب الفهم والمقال الذي يخاطب به العارف دون إغفال المعنى اللغوي والطريق الذي تشربت به قلوب العارفين كسبا وكشفا.

فإذا كانت بغية العارف نيل أعلى مقامات القرب الإلهي في أسمى معانيها الجمالية بالتخلي عما يعارض الشارع ظاهرا وباطنا، والتحلي بمكارم الأخلاق وصالح الأعمال ، فإن طريق التبليغ على الهدف تصادف أحوالا تستوجب المفاتشة والمكاشفة بما يسهل على المتلقي بلوغ المراد.

يظهر هذا الطموح في منتهاه فعلا صائبا ومادة تكتنز في عمقها نجاة وخلاصا بسعادة دائمة في الحياتين، ولكن الظاهر للقارئ والباحث في فنون هذا العلم شيوع نظرات متهافتة فاقدة للتبصر والحكمة وشرود بعض الهتافات الفاقدة لأعراف العلم وموضوعيته، ولعل النرجسية الاعتقادية التي تفتقد لآليات البحث العلمي والنقد البناء أمام تماهي بعض المتصوفة بدنيا العلائق، قد أفحم من لم يتبصر بمقصد العلم اللائق ، ما أقحم أصحاب النفوس الواهمة بمروق العارفين عن الخلائق.

ونجد أن عصر ما يسمى النهضة قد تمادى في مازوشية توارثها قيصريا من الغرب وما أشهد أهلها بانهيار بنيانها المأمول، وتهاوي أفكارها من الأصول معللين بذلك أن استنساخ صورة النهضة الغربية حالت دون توطينها في دنيا المسلمين، فعاش هذا الطرح مغتربا بذاته ولذاته، وأساءت إسقاطاته أكثر ما نفعت بأحوال علوم الأمة ومصير أبنائها، وما يزيد من خلخلة الوجهة العلمية فقدان روح النقد البناء بين الدارسين والمؤرخين على حد سواء، فنجد أن التموضع مع روح التاريخ والعيش في قلب الأمة مفقودا عندهم بالجملة، فيما يشيعون من دراسات مغتربة عن الحقائق، ولطالما تغنت هذه النخب بالمدنية والتحضر وبلورة العلم، ولكن هوى الأسادية بارز فيهم للعيان، فلم نجد عندهم قواعد التأسيس الحضاري الفعال بقدر ما أغفل في دراستهم الطلب، وضعت بأهواء أنفسهم المطلوب وشتان بين الثرى والثريا.

يتبادر للأذهان أن الطرح الآنف الذكر حول فنون هذا العلم إنزاح عن المقصد بالجملة، خاصة أن اللغة العلمية والحدود الاصطلاحية والمعرفية للعلم لم تُعْنَ بالدراسة الأكاديمية اللائقة، بقدر ما شاعت الدراسات الوصفية والإيديولوجية مع ارتكاز أغلب الباحثين على مؤانسات تراثية تفتقر لأدنى معايير الدقة، أما الوجهة الإعلامية والسياسية فغالبا ما تقتات بأحكام ومشتهيات تكرس الصورة الاستهلاكية التي اجتثتها من تراكمات استعمارية غير مسؤولة، وغالبا ما كانت تهدف إلى النيل أو الاستمتاع بما يخدم السؤدد وبقاء التسلطن الغير المشروع، ولم تكن في الغالب تحظى بإيثار معاني القيم وحفظ مواريث الأمة بقدر ما كانت جعجعة بلا طحين، ورهانا لكسب الوقت على حساب المعرفة والقيم، فيلتبس بما سبق ذكره نجوى الباحث بميوع تحليل الوقائع، ومن أجل خلع ديجور الوهم وترسيم المنهج نستبدل المغالط باستخدام لبيب العلم وآلياته، والانتقال من وهم الدراسات التواصفية المجوفة من المعنى إلى كنه التبصرات الهادفة أصلا إلى يقظة الوعي وعموم الفائدة على الأمة، وبطرحنا هذا نفتتح الإشكالية التالية:

ما المسار المجدي والمسلك المنهجي القويم لتصويب الفهوم لمقاصد التصوف الإسلامي علما بأن العارفين برعوا في تعزيز تجاربهم الذوقية بالولوج داخل البناء الكوني للقيم ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي أسباب الارتداد المعاصر في التعاطي مع التراث الصوفي وما السبيل الأنجع لبناء منهج معرفي أخاذ يروم إلى التوطين الإيجابي لمحاسن التراث الصوفي ؟.

وعلى هذا الأساس نصوغ تساؤلات جزئية كما يلي :

أولا: ما المرادبالتصوف الإسلامي في اللغة والإصطلاح وما هي أهم المصطلحات المماثلة والدالة على فروعه ونسقه المعرفي ؟.

ثانيا: ما هي الجوانب القيمية التي تمثل لب المقصدمن التجربة الصوفية وآثارها الإيجابية في الحضارة الإنسانية ؟.

ثالثا: إذا سلمنا أنه ثمة معيقات وراء زيغ المعنى والتباس الفهوم ما حال دون خلق تماهي بين مدلولات العلم ومقاصده فما هي أهم هذه الإرتيابات ؟.

رابعا: سعيا منا لترسيم أسس معرفية هادفة تستشفي بلسم المعنى من القيم الصوفية وتكتنز بالإستنفاع من روح التجربة الصوفية ما السبيل الأقوم لتوطين نفيس التراث الصوفي في أجوائنا المعاصرة ؟.

.1.ضبط مفاهيم الدراسة :

1.1 التصوف، التزكية، الإحسان ، العرفان ،التجربة الصوفية

عرف جميل صليبا* **التصوف** على أنه "**طريقة سلوكية قوامها التقشف و الزهد ، و التخلي عن نفسية يشعر فيها المرء بأنه على اتصال بمبدأ أعلى**" وقد يطلق لفظ التصوف "**على النظريات التي يهم أصحابها في بدأ الوهم ، و يعتمدون في إدراك الحقيقة على العاطفة و الحدس و الخيال أكثر من اعتمادهم على الملاحظة و التجربة الحسية و الاستدلال ، و يزعمون أن في وسعهم أن يدركوا بالإلهام أسرارًا لا يدركها العلماء بعقولهم ، و هذا المعنى كما ترى لا يخلو من زراية.**"[1]، أما في اللغات الأجنبية ،في الفرنسية (Mysticisme,Mystique) ، وفي الإنجليزية (Mysticism)، وفي اللاتينية (Mysticus)،

و قيل أيضًا : تصفية القلب عن الموافقة البرية ، و مفارقة الأخلاق الطبيعية ، و إخماد الصفات البشرية ، و مجانبة الدعاوي النفسانية ، و منازلة الصفات الروحانية و التعلق بالعلوم الحقيقة ،و استعمال ما هو أولى على السرمدية ، و النصح لجميع الأمة ،و الوفاء الله تعالى على الحقيقة ، و إتباع رسوله في الشريعة ، و أصل التصوف الإعراض عن الدنيا و الصبر ،و ترك التكلّف ، و نهايته الفناء بالنفس ، والبقاء بالله ،و التخلص من الطبائع و الاتصال بحقيقة الحقائق . لذلك قيل :أول تصوف التصوف علم ، و أوسطه عمل، و آخره موهبة من الله تعالى .

و يرادف التصوف في عائلة الكلمات **الزهد** الذي يعنى به في اللغة العربية ترك الميل إلى الشيء ، نقول : زهد في الشيء زهدًا و زهادةً ، أعرض عنه ن و تركه لاحتقاره له ، أو لتحرجه منه ، و زهد في الدنيا ترك حلالها مخافة حسابه ، و حرامها مخافة عقابه . لذلك قيل : الزهد نوعان : أحدهما الزهد في الحرام ،و الآخر الزهد في الحلال فإذا كان في الحرام كان فرضا ، و إذا

---

*–جميل صليبا ،ولد في لبنان عام 1902 م ، و توفي سنة 1976 م ، و دفن بدمشق ، وهو كاتب و فيلسوف عربي ، ومن أهم مؤلفاته : (تاريخ الفلسفة العربية) و (المعجم الفلسفي : بالألفاظ العربية و الفرنسية و الإنجليزية و اللاتينية ،يقع في جزئين) و (علم النفس في الفلسفة و المنطق) و (من الخيال إلى الحقيقة) .

1–جميل صليبا ،**المعجم الفلسفي" بالألفاظ العربية و الفرنسية و الإنكليزية و اللاتينية** " ، (دار الكتاب اللبناني للنشر ،لبنان ، سنة 1982 ،ط،ج1)، ص282-283-284.

*– أبو الحسن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ، ولد بمكة المكرمة سنة 599 م ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله و صهره ، من آل بيته ، و أحد أصحابه ، هو رابع الخلفاء الراشدين عند السنة و أحد العشرة المبشرين بالجنة و أوّل الأئمة عند الشيعة ، و توفي سنة 661 م بالعراق .

كان في الحلال كان فضلاً ، و الزهد في اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا و الإعراض عن شهواتها ، و الزاهد من ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا أي لا يفرح بشيء منها ، ولا يحزن على فقده ، و لا يأخذ منها إلا ما يعينه على طاعة ربه ، مع دوام الذكر و المراقبة ، و التفكر في الآخرة لذلك قيل الزهد ترك الدنيا طلبًا للآخرة ، و لذلك قال الإمام علي بن أبي طالب* : من زهد في الدنيا هانت عليه الآخرة ، و أعلى درجات الزهد ، الزهد فيما سوى الله تعالى من دنيا و جنة و غيرهما ، إذ ليس بصاحب هذا الزهد إلا الوصول إليه تعالى و القرب منه ، لذلك قيل : الزهد ترك ما يشغلك عن الله ، و يطلق الزهد في الفلسفة الحديثة على المذهب الأخلاقي ، الذي لا يحسب للذّات والآلام حسابًا ، و يعرض عن إشباع الغرائز الحيوانية و النزعات الحسية و الطبيعية ، و جميع مذاهب الأخلاق تقول بوجوب سيطرة الإرادة على الدوافع التلقائية ، إلا أن هذه السيطرة لا تصبح زهدًا إلا إذا أفرط صاحبها فيها ، و كثيرًا ما يكون الزهد نتيجة اتجاه ديني أو أخلاقي ، أو يكون المقصود به الحصول على الكمال الذاتي بممارسة الرياضة الروحية ، و إذا اشتد الزهد وصحبه تلذذ بالألم لذاته أصبح انحرافًا عن الجادة أو مرضًا في النفس .1[1]

كما نجد أيضًا **مصطلح الإحسان** و الذي يندرج هذا الأخير ضمن عائلة المرافات المعنوية للتصوف ، حيث يعرفه جميل صليبا على أنه **فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير ، وهو أما أن يكون ذاتيًا يبقى و لا ينقطع ، و يتزيد و لا ينتقص ، و إما أن يكون عرضيًا ينقطع ، و يلحق فيه اللوم ، فالمرء يتقرب إلى الله تعالى بالإحسان إلى نفسه و إلى المستحقين من أهل نوعه ،فمعنى الإحسان إذن هو العمل بالفضائل**[1] ، ويقول تعالى : (**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانْ إِلاَ الإِحْسَانْ**)[2] و الاستفهام لنفي أن يكون هناك مقابل لعمل خيري ، سوى الجزاء الحسن ، فالمراد بالإحسان الأول ، القول الطيب ، و الفعل الحسن ، و المراد بالإحسان الثاني ، الجزاء الجميل الكريم على فعل الخير ،أي ما جزاء من آمن و عمل صالحًا ، و خاف مقام ربه ، ونهى نفسه عن الهوى ، إلا أن يجازى الجزاء الحسن ، و يقدم له العطاء الذي يشرح صدره و تقربه عينه، كما جاء أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في تعريفه للإحسان بقوله : (**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**[3]) وهذا الحديث دل على أن مقام الإحسان له رتبتان : الأولى بأن يستحضر العبد مقام الله في قلبه ، بحيث يصل إلى رتبة الشهود التي تساوي الرؤية ، و الثانية بأن لم يقدر العبد على الأولى ،فيستحضر رؤية الله له ، و مراقبته لجوارحه و سرائره ، فيدفعه ذلك لخشيته و الخوف منه ، فيكون في الرتبة الأولى راغبًا طامعًا ، وفي الثانية خائفًا راهبًا .

يمثل مصطلح **التزكية** أحد أهم المصطلحات القرآنية الدالة ،و تعد أهم المهام التي بعث الله عز وجل الرسل من أجلها ، لذلك نجد التزكية قد ذكرت في الكثير من محاسن القرآن ، فكانت دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى : (**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**)[4] ،و قد استجاب الله عز وجل لدعوته فبعث لنا حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم ليقوم بهذه المهمة ، لذلك من الآثار المترتبة على التزكية ، أن يتحقق القلب بالتوحيد و الإخلاص و يصل للمنازل العالية من الصبر و الشكر و الخوف و الرجاء و المحبة لله سبحانه و تعالى

[1]- جميل صليبا ، المرجع السابق ،ص 640-641
[1] - جميل صليبا ، المرجع السابق ،ص 45.
[2]- سورة الرحمن ،الآية 60.
[3] صحيح البخاري، الرقم: 4777.
[4]-سورة البقرة ، الآية 129.

و الصدق مع الله ، و يتخلى عن الرياء و العجب و الغرور و الغضب و غيرها من آفات النفوس ، لذلك نجد السلف الصالح كانوا يولون أمر تزكية النفس و تطهير القلب اهتمامًا بالغًا ، و يقدمونها على سائر الأمور في حياتهم اليومية ،، حيث جاء في قوله تعالى: (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اِسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**)[1]،لذلك من لم يتزكى سيقع في شراك نفسه ، التي تجعله يعيش في الخداع و الوهم ، و يحسب نفسه من الصالحين و هو أبعد ما يكون عنهم ، لذا يقول تعالى : (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَاهَا**)[2] ، ودساها هنا تعني خبأ نفسه وسط الصالحين .

و يرادف التصوف أيضًا في عائلة الكلمات الاصطفاء ، فلقد كان سيدنا آدم عليه السلام أول من اصطفاه الله تعالى ، فكان بذلك أول مصطفى .

ولقد جاءنا قرآن الكريم بنبأ يقين عن **الاصطفاء** وهو أهم مقاصد التصوف وأهدافه إذ هو منحة إلهية يهبها لمن يشاء من عباده فضلًا منه و نعمة حيث قال الله تعالى :(**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ**)[3] و في قوله أيضًا : (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةٌ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**)[4] ، إذا فآدم عليه السلام لم يكن وحده على الأرض ، ذلك أنه كان له اصطفاء و استخلاف و الذي يعني هذا الأخير إهلاك الآخرين و الإبقاء على خليفة ناجيًا وحيدًا من بعد تحقق ذلك الإهلاك ، أما الاصطفاء فهو الاختيار من بين الآخرين ، كما جاءنا أيضًا في القرآن الكريم قوله تعالى : (**وَلَقَدْ اِصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآَخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينْ**)[5]، و يعني في قوله أنَّ الله تعالى أنه اصطفا سيدنا إبراهيم لخلته ، و جعله للناس إماما ، وأخبر أنّ دينه كان الحنيفيّة المسلمة ، و إنّ إبراهيم في الدار الآخرة لمن الصالحين ، و الصالح من بني آدم عليه السلام هو المؤدي حقوق الله عليه. أما عن القول بالقرينة بين التصوف والعرفان أو بأن التصوف هوعين العرفان ، فمن خلال التعريف بأن **العرفان** الذي يقابله بالأجنبية **gnostique** فهو "**العلم بأسرار الحقائق الدينية ، وهو أرقى من العلم الذي يحصل لعامة المؤمنين ، أو لأهل الظاهر من رجال الدين ، و العرفاني هو الذي لا يقنع بظاهر الحقيقة الدينية بل يغوص على باطنها لمعرفة أسرارها ... و يطلق اسم العرفانية على المذهب الذي انتشر في القرنين الثاني و الثالث للميلاد و خلاصته أن العقل البشري قادر على معرفة الحقائق الإلهية ، وأن الحقيقة واحدة و إن اختلف تعليمها ، و أن الموجودات فاضت عن الواحد ، و لها مراتب مختلفة ، أعلاها مرتبة العقول المفارقة ، و أدناها مرتبة المادة التي هي مقر الشر و العدم ، أما النفس التي هبطت إلى هذا العالم فإنه لا خلاص لها إلا بالمعرفة ، بل الخلاص بالمعرفة أفضل من الخلاص بالإيمان و الأعمال الصالحة ، و مع أن بعض العرفانيين يمزجون تعليمهم بشيء من الوهم و الخيال، فإن العرفانية المسيحية تقول : إن الخلاص لا يتم إلا بطريق الحكمة ، وللناس في نظرها ثلاث مراتب : أولاها مرتبة**

---

[1]-سورة الأعلى ،الآية 14-15.

[2]سورة الشمس ،الآية 9-10.

[3]-سورة آل عمران ، الآية 33.

[4]-سورة البقرة ، الآية 30.

[5]-سورة البقرة ،الآية 130.

العارفين و خلاصهم بالحكمة ، و ثانيتها مرتبة المؤمنين و خلاصهم بالإيمان ، و ثالثتها مرتبة الجمال و هم الهالكون لا محالة[1] ، كما أنّ الشيخ محي الدين بن عربي * و الذي اشتهر بابن عربي يعتبر من أكبر العرفانيين المسلمين ولقد لقب بالشيخ الأكبر ، فلقد تكامل العرفان الإسلامي منذ بدايته عبر القرون بشكلٍ تدريجي ، حتى ظهر ابن عربي في القرن الهجري السابع ، فأحدث قفزة كبيرة في العرفان ، بلغ به إلى قمة الكمال ، و أدخله مرحلة جديدة لم يسبق لها مثيل ... كما أسس ابن عربي القسم الثاني من العرفان (أي شطره العملي و النظري و الفلسفي) كما يعتبر أول من فلسف العرفان ، بمعنى أنه أول من أخرجه على شكل مذهب منظم[2] .

و نجد أيضًا من المتصوفين الكبار من جعل التصوف مرادفا **لعلم الأذواق** ، فالأذواق هي أنوار ربانية يقذفها الله تعالى في قلوب أوليائه من غير أن ينقلوا ذلك من كتب أو مدونات ، إذ يعتبر الذوق معرفة بالله معرفة قائمة على الكشف و الشهود ، و وسيلته ليست العقل، لأن العقل منطقي و **العلوم الذوقية هي علوم أهل الله وخاصته** وهي المتعلقة أحوال العارفين مع المواجيد الربانية والأحوال الإيمانية ،كما جاء في حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :(**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَدٍ رَسُولاً**)[3] لذلك فلذة الطاعة لا تشبه لذة المعصية لأن لذة الإيمان قلبية روحية تتبعها بالفرح والسعادة ، و لذة المعصية شهوانية جسدية ، تتبعها الحسرة و الندم .

و كل هذه التعريفات غايتها واحدة ألا وهي الانتقال من النفس الظلمانية إلى النفس النورانية أو الكاملة وبلوغ منتهى الغايات كما أرادها ربنا تبارك وتعالى وهي **الصلاح** الذي يمثل بغية العارفين والسادة الأنبياء عليهم أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ،(**وَلَقَدْ اِصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآَخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينْ**).

و يعرف الجرجاني التصوف بأنه "**علم القلوب الذي يبحث في أحوال النفس الباطنة ، ويسعى إلى تصفية القلوب و الطهر و التجرد ، و يؤدي إلى الاتصال بالعالم العلوي**"[4] .وهو القرينة الجامعة بين علم الظاهر والباطن من أجل الاكتمال الأخلاقي الذي يمثل الصلاح منتهاه في الدنيا والآخرة .

أما حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي* فيقول : **هو طرح النفس في العبودية ، و تعلق القلب بالربوبية ، فإن تصفية القلب عن المرافقة البرية و مفارقة الأخلاق الطبيعية و إخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النقائية و منازلة الصفات الروحانية ، و التعلق بالعلوم الحقيقة ، وإتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشريعة، لذلك فهو تزكية النفوس**

10–جميل صليبا ،**المعجم الفلسفي" بالألفاظ العربية و الفرنسية و الإنكليزية و اللاتينية** " ، (دار الكتاب اللبناني للنشر ،لبنان ، سنة 1982،ط،ج2) ص73

*– محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي ، الشهير بمحي الدين بن عربي ، أحد أشهر المتصوفين و الملقب بالشيخ الأكبر ، ولد في الأندلس سنة 1164 م ، ومن أهم أعماله كتاب الفتوحات الإسلامية ، كتاب فصوص الحكم ، كتاب اليقين ، كتاب شجرة الكون ، و توفي بدمشق سنة 1240م .

11–مرتضى مطهري ،**مدخل إلى العلوم الإسلامية "قسم الكلام و العرفان و الحكمة المتعالية** "،ترجمة حسن علي الهاشمي،(دار الكتاب الإسلامي ،سنة 2010 ، ط5 ،ج1)ص90-91.

[3]– رواه البخاري ، في صحيح البخاري ، عن أبي هريرة ،ص 6502، .

[4]– الجرجاني ،**معجم التعريفات** ،(طبعة حبلي ، القاهرة مصر،1938م، ط،ج) ص 46.

و **صفاء القلوب و إصلاح الأخلاق**[1] . وبهذا يجمع الغزالي بين مقاصد التصوف وغاياته وممزوجا بمعاني العرفان والزهد وتجليات الإصطفاء والتزكية .**و قيل أيضًا في تعريف التصوف : التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف ... ومن شرط المنعوت في التصوف أن يكون حكيمًا ذا حكمة ، و إن لم يكن فلاحظ له في هذا اللقب**[2] . ولن يبلغ السالك في طريق التصوف مبتغاه إلا إذا كابد بصدق هذه الرياضات التزكوية مستأنسا بتجارب السادة الأنبياء عليهم أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ومجاهدات العارفين اذ يقول تعالى: 'وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[3]" مما يحقق له الوصول بالغنية في أصول التجربة الصوفية التي تتم بطريقة واضحة وفقا للمتعارف عليه عند مشائخ التربية والسلوك .

2.1 أدوات الإستمداد[4]

المنهج الصوفي

الطريق الصوفي
القلب
الشكر
الشيخ
الطريق الصوفية
الأدب
الذكر
المقامات
الذكر
تنوير القلب
تزكية النفس
الحضرات
الكشف
مناما
الفراسة
يقظة
الفتح
الأخذ عن الله
الكرامة
معنوية
حسية

---

[1] –أبوحامد الغزالي ،**روضة الطالبين و عمدة السالكين** ،(دار السعادة للنشر،مصر ،1924م،ط،ج)ص 143.

[2] –محمود محمود الغراب ،**شرح كلمات صوفية** ،(مطبعة النصر للنشر ،1993م،ط2،ج)ص 361.

[3] سورة العنكبوت: الآية: 69.

[4] محمد بن بريكة، المرجع السابق، ص 292.

ويبقى في التصوف –من بعدُ– ذلك التفرد الخاص لكل تجربة حيوية نابضة بالحياة، مع عدم تغيير المنهج أو تبديل المضمون، إذ أن تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدد الاستحسان وحصول الحسن لكل مستحسن، كما قال الشيخ زروق في قواعد التصوف، "**فمن ثم كل لكل فريق طريق، فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي، ومن نحا نحوه، وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج في مداخله، وللمتحدث تصوف حام حوله ابن عربي في سراجه، وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه، وللمتريض تصوف نبه عليه القشيري في رسالته، وللناسك تصوف حواه "القوت" و "الإحياء"، وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه، وللمنطق تصوف نحا إليه بن سبعين في تآليفه، وللطبائع تصوف جاء به البوني في أسراره، وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه، فليعتبر كل بأصله من محله**". وهذا يعني أن التصوف مبثوت في طوايا التوجهات الإنسانية، لكن يبقى التفرد الخاص الذي لا يخل بمضمون التجربة، فلا المنهج ولا المضمون يمكن لأحدهما أو كلاهما أن يختلف في أعماق التجربة الصوفية[1].

3.1 قيم الزهد والتزكية تبني الحضارة:

استقى ابن خلدون نظرته حول التاريخ من لب الحضارة الإسلامية مستأنسا بحوادث هامة غيرت مجرى تاريخها إيجابا أو سلبا، وارتبط الطرح الخلدوني بوقائع معاشة فالحدث التاريخي لا ينفصل عن المنظومة القيمية السائدة، ففي زمن البعثة عمل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على تربية جيل يحمل لواء الدعوة ونور الشريعة فعلا وقولا وحالا، فغير المنظومة القيمية السائدة في الجاهلية إلى قيم تتماشى والفطرة السليمة. وهنا أنشأ الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم جيلا جديدا تبنى حقيقة هذا الدين وغايته وغير العقليات، بما يتماشى و طبيعة الرسالة المنزلة عملا بقوله تعالى: "**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ**"[2]، وجاء القرآن بمدح جيل الصحابة –رضي الله عنهم أجمعين– في أكثر من موضع ويحثهم على التمسك بهذا الدين وقيمه الخالدة وهذا ما زادهم تعطشا لنيل رضا الله –عز وجل–ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، يقول تعالى على مسلمي عهده محمد صلى الله عليه وسلم ووصفهم القرآن كذلك بالتآخي وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والتراحم بينهم في قوله: "**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**"[3] وهي دعوة صريحة للصحابة الكرام للتآخي والوحدة ونبذ النفاق والخلاف، ونظرا لاتصاف الصحابة الكرام بهذه الصفات، وأخرى، فقد كسبوا رضوان الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

[1] مجدي محمد إبراهيم، التجربة الصوفية "بحث في تحقيق العلاقة بين اعتقاد الثنائية ورؤية الواحدية في تجربة العارف الروحانية"، (مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2003، ط1)، ص 17.

[2] سورة الرعد، الآية: 11.

[3] سورة الفتح، الآية 29

4.1 شيوع الترف والبذخ يحطم الحضارة والسنن الكونية:

قاد هذا الجيل الفتوحات الإسلامية ونشروا قيم الدين السمحة بين الأمم متمسكين بسيرة الحبيب ﷺ وتحملوا آلام الحروب والفتن بكل شجاعة وصبر، وزهدوا في الدنيا طلبا في الآخرة فازدهرت الحضارة والعلوم وتعايش العرب والعجم وأعطيت الحقوق لأهلها مسلما كان أو مسالما من أهل الذمة ولكن في أواخر زمن بني أمية وبني العباس وملوك الطوائف بالأندلس وفي أواخر خلافة العثمانيين على الأمة الإسلامية ظهر الفساد والترف واختفت قيم الزهد والمحبة وكثرت الفتن والطائفية وأغفل العلم وطرد العلماء الزهاد النساك من قرارات الدول وديوان الخلافة وحق قوله تعالى: "**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**"[1]، **وقوله كذلك: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"**[2].وكان لسقوط خلافة المسلمين العباسيين والعثمانيين وغيرهم من ملوك الأرض راجع إلى الإنغماس في مظاهر البذخ والفساد والترف وانحراف الناس عن روح الشريعة ومقاصدها الباطنة. فإما أن تسود قيم الإسلام فينتشر الخير والمحبة وتتقدم الحضارة ، وإما تعود الناس إلى عادات الجاهلية من فسق وعربدة وقومية وقبلية عنصرية...الخ فتذهب الدولة أدراج الرياح إن الزهد يبني الحضارة وقيم الصوفية مأخوذة من العطرة النبوية، والحضارات تبنى على قاعدة علو الهمة والزهد والحث على العلم والمحبة وتحطمها الشهوات والترف، وهذا تفسير ابن خلدون ومن نحى منحه من فلاسفة الحضارة، خاصة عند "**أرلوند توينبي**" "**Arnold toynbee** ".[*]

مثلت القراءات الخلدونية للتاريخ والمجتمع قيمة حضارية تفند القلاقل الزائفة عن التصوف كحالة حضارية منحطة من خلال دراسة موضوعية منطلقة من البنية المفاهيمية والقيمية ، وربط الظاهرة التاريخية بحتمية القيم السائدة فيه في كل مرحلة تاريخية للدولة مهما كانت صفتها وعقيدتها . فقيم الزهد والحث عليها موقدة الشعور بواجب البناء في حين أن الترف والعربدة وسوء الأخلاق أدت بالسواد الأعظم للهلاك .

5.1 الأمير عبد القادر وابن عربي نموذجا للقيم الإنسانية:

إن التجربة الصوفية تحمل في أعماقها هذه النزعة الإنسانية التي تؤمن بالحب الإلهي، فكشف للمتصوف أسرار الوجود، وهي بوصفها على هذا الشكل ترفض كل أشكال الانغلاق والتحجر(فالهوية في التجربة الصوفية، تفتح مستمر، ذلك أن الذات تتجاوز في اتجاه الآخرين أين تجد حضورها بصورة مكتملة).

وكان الشيخ الأكبر "محي الدين بن عربي" ذو نظرة شمولية في المعرفة، داعيا إلى تجاوز الصراعات المذهبية والعقائدية التي يقع فيها أهل الظاهر فيسقطون في قياسات الفقهاء أنصار النزعة الدوغمائية في تأويل النصوص. وهذا المجال هو الحد الفاصل بين المتصوفة وغيرهم حسب الشيخ الأكبر ابن عربي. «لأن العارف الكامل يعرفه في أي صورة يتجلى فيها، وفي كل صورة ينزل فيها وغير العارف لا يعرفه إلا في صورة معتقده، وهذا مالا يتعارض البتة مع روح الوحي القرآني إذ يقول الحق سبحانه وتعالى: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**

---

[1] سورة الإسراء، الآية 16.

[2] سورة الأعراف، الآية 96

[*] أرلوند توينبي Arnold toynbee : فيلسوف ومؤرخ بريطاني، عرف بنظريته " elan vital " المعروفة بنظرية الدافع الحيوي ومفادها أن الطاقة الكامنة في الفرد هي التي تحدد قوة الاستجابة على التحديات الحاصلة، ومن أهم مؤلفاته: الحضارة في الميزان، الإسلام والغرب، العالم والغرب.

إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[1]" ، وقد عمل سيدنا محمد محمد صلى الله عليه وسلم على ترسيخ هذه العقلية في نفوس المسلمين الأوائل. وهذه النصوص هي تجليات حقيقة مقتبسة من سيرته العطرة وتعاملاته الإنسانية مع كل أبناء البشرية، ويكفي فخرا بذلك وثيقة العهد العمرية التي ضمن فيها سيدنا عمر –رضي الله عنه– حقوق أهل الكتاب في بيت المقدس كاملة، وأمنهم على أملاكهم ودينهم وأعراضهم، مما سهل نشر الدعوة وتعايش المسلمين معهم في البلاد المفتوحة.

استطاع الأمير عبد القادر الجزائري –رحمه الله– أن ينفذ إلى كنه الشريعة طوال حياته البطولية ضد الاحتلال الفرنسي، وبعدها في منفاه بالشام، فعرف المعنى الحقيقي للجهاد الإسلامي، وعلى من يجوز، ومن لا يجوز عليه من أهل الذمة، عاملا يقوله تعالى: "**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**"[2].

فعامل أسرى حروبه في الجزائر أحسن معاملة وجاهد جهادا شهد له العدو قبل الصديق على نزاهته وإنسانيته فلم يكن سفاحا قتالا للأبرياء. و في المقابل، وجه جنده إلى محاربة فيالق الطغيان وقادتهم المجرمين الذين ظلموا الشعب الجزائري فاستولوا على ملكه وأخرجوه من دياره، بل منعوه من ثقافته ولغته ودينه. وحقق انتصارات أعادت للجزائريين الثقة في نفوسهم، بل وتعلموا منه –رحمة الله– معنى الجهاد المقدس في سبيل الله والوطن، وهذا هو المقصد من الجهاد، طبقا للآية الكريمة السابقة الذكر.

أما بعد نفيه إلى الشام فقد دعا إلى التعايش والمحبة بين شتى الطوائف، الإسلامية وغير إسلامية. كما أنه أوقف مذابح عظيمة كادت أن تقع بين المسلمين والمسيحيين لأسباب طائفية عرقية فعصم الدماء وأخمد نيران الفتنة التي كادت أن تهلك المنطقة، وهذا بشهادة كبار مؤرخي المسلمين والغرب على حد سواء.

ويبدو أن الأمير تأثر جليا بالشيخ "محي الدين بن عربي" في نونيته إذ يقول:

لقد صار قلبي قابلا لكل صورة فمرعى غزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني[3]

إن مثل هذه الإشرافات المفعمة بالتسامح والمحبة هي الحل الأمثل للحوار مع الآخر، لتقديم بديل شامل لأزماتنا المعاصرة ومعضلاتنا الأخلاقية الروحية. كما أن هذا الطرح الإبداعي الفذ لهذه القيم الإنسانية تأكيد على إمكانية قيام عالم يؤمن بقيم مشتركة، ويتحلى بصفات التسامح في الآراء ويرسخ لثقافة التنوع والتعدد. وهذا بتفعيل هذه القيم الروحية النبيلة، وتعليمها لكافة أبناء الإنسانية، في وقت يسعى فيه الراديكاليون والمتشددون وأصحاب المصالح الكبرى إلى توجيه المعتقد نحو إشعال نيران الحروب

[1] سورة الحجرات، الآية: 13.
[2] سورة الممتحنة، الآية: 8.
[3] قصيدة النونية للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي.

والنعرات الطائفية والقومية، بعيدا عن كل فكر ديني قيمي بنّاء خدمة لطموحاتهم التسلطية الاستدمارية في حق الشعوب، باسم الأديان وحقوق الأقليات وغيرها.

2.الأسباب المنهجية للقصور المعرفي في التعاطي مع التراث الصوفي:

1.2 زيف تاريخانية التوصيف التماثلي للتجربة الصوفية:

أشار ابن خلدون* للتصورات الزائفة عن كنه الظاهرة التاريخية، وأظهر فصولا عدة للتنبيه عن أوهام المؤرخين وأغاليطهم في التدوين والتحليل وصدور أحكام جزافية جهلا منهم في فهم قلب الحدث ، وربما قوله عنهم: (**الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقدين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب.**[1]) من ركائز النقد الفعلي البناء للتحقق من صدق الظاهرة التاريخية، وكثيرا ما كان عدم الاطلاع على تمام الظواهر والحكم على الشيء بالمظاهر، ثم عدم ثبوت الحكم للمحكوم عليه أو زجه في التهم دون السماع للخصم سببا لفشل الاحتكام القيمي للكتابات التاريخية، ما يلزم القارئ بالنفور عنوة وقهرا والحكم على تاريخ أمته سلبا، أو إجمال الرذائل دون ذكر منتهى المقاصد، خاصة أن أغلب المدارس التاريخية تتحكم فيها المصوغات الرسميات ومردود إيديولوجيات التي يكون حكمها وقوفا بتصورها دون إمعان البصيرة قبل الحكم على المظاهر، يقول "**أبي العباس أحمد زروق الفاسي**": (**الكلام في الشيء فرع من تصور ماهيته وفائدته، ومادته بشعور ذهني مكتسب أو بديهي، ليرجع إليه في إفراد ما وقع عليه ردا وقبولا، تأصيلا وتفصيلا، فلزم تقديم ذلك على الخوض فيه إعلاما به وتخصيصا عليه، وإماءا لمعادنه فافهم**[2]).

فكثيرا ما وقع المؤرخون في ترصيص معلوماتهم وتلفيقها وكانوا أسرى السرد والحشو، ولم يمعنوا النظر فيمن هم دارسوهم، خاصة عندما يستأنس بجلهم لكتب وشهادات المستشرقين الغربيين، التي تفتقد لأدنى معايير التموضع واختلافها في الوجهة ودسها للبؤر التشرذم والفرقة قصدا بين أبناء الأمة، حالها ما كتب على قادة الثورات الشعبية بالجزائر مثلا، وابن عربي، والأمير عبد القادر...

وقد ساهم التوصيف الأحادي دون لم شمل المعلومات بحقيقة العلم إلى فوات الفرصة على الجيل الجديد من الاستنفاع بموروث العارفين وقيم علومهم، يقول "**الشيخ أحمد زروق الفاسي**": (**الاختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثر دلّ على بعد إدراك جملتها، ثم إن رجع لأصل واحد يتضمنها جملة وما قيل فيها كانت العبارة عنه بحسب ما فهم منه، وجلمة الأقوال واقعة على تفاصيله، واعتبار كل أحد على حسب مناله منه علما وعملا، أو حالا أو ذوقا، أو غير ذلك...**[3]).

تتباين الآراء والأقوال حول الشخصيات، وغالبا ما كان حكم القيمة الموصوف بقلة الدقة والتمعن ومن دون استرسال بالعقل في الحقيقة، وهو الطابع الغالب على المؤرخين في زماننا فيكون المحقق مقيدا بجملة ما أريد منه، وليس ما أراده العارف، وما

* بن خلدون: هو عبد الرحمن ابن خلدون، ولد 1332 بتونس، وتوفي 1406 بمصر، تولى عدة مناصب في الحكم، اهتم بالتاريخ والحضارة و يعود إليه الفضل في تأسيس علم الإجتماع المعاصر. من أهم كتبه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

[1] بن خلدون، **المقدمة**، (دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 2004)، ص 42.

[2] أبي العباس أحمد زروقي الفاسي، **قواعد التصوف وشواهد التعرف**، (دار المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب، تونس، 2015)، ص 44.

[3] أبي العباس أحمد زروقي الفاسي، المصدر السابق، ص 24.

يزيد الطين بلة الزج في نصيب العرف العلمي والحكم عليه بغير ما أريد به، ثم إن قياس منجزاتهم عنوة بمن لا قيمة ولا ثورة ولا انتصار، كما أن بعدهم ومخلفالتهم لأساليب الدمار وسوء القرار والحملة عليهم قذفا وطعنا بمن لا علم لهم ولا عمل أمام من ملأ الوجود بعلمه والتاريخ بأعماله والعقول بأنواره فشتّان بين ذاك وذلك، وسنتطرق في نهاية بحثنا هذا إلى أدوار العارفين ومرديهم في ملحمة الفعل البناء، وغالبا ما فهم المؤرخون المواجيد الصوفية ولغتهم خطأً، يقول المثل من جهل شيئا عداه، فالاحتياط من هذه الدراسات أفضل من الخوض فيها، لأنها تضر بالناشئة ومصير الأمة.

وغالبا ما كانت الدراسات السابقة كما وصفها بن خلدون تفتقر إلى أدنى معايير الموضوعية والصدق، وكثيرا ما يشوبها انعدام التبصر وأدنى قواعد المعرفة العلمية، يقول **"بن خلدون"**: (**وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالطة في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاصوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة.**[1]).

2.2 . انتكاسات الحداثة ومحدودية حلولها علاج أزمات البشرية:

سادت الإنتقادات اللاذعة من طرف النهضويين لكل ماهو ديني حتى أسدل الستار على الظاهرة الدينية بتهمة تحميل الكنيسة لتخلف الغرب لقرون وأصبح العداء السياسي من طرف الدول المتقدمة لكل ما هو ديني عنوانا مشتركا .كما أن النهضويين والتنويريين على حد سواء ساندوا هذا الطرح بدرجات متفاوتة انتهت بفصل المعتقد عن الحياة السياسية وقد أغفلت الحداثة أن الإنسان أوسع من أن يحصر في عقل ونزوع من دون ذوق وروح ويشهد الغرب على نفسه أن فلسفة الحداثة بشتى توجهاتها حالت دون تحقيق سعادة البشرية، وانقلابات نيتشه وفلاسفة ما بعد الحداثة تعبير صارخ عن محنة الشقاء التي تتخبط فيها الحداثة الغربية وقد مثلت الحربين العالميتين الصورة الأشد تأثيرا على أفول نجم الوعود الموهومة للتصور المادي أو التجريبي لبناء العالم الجديد كما أن العقلانية وقعت في مأزق استحالة اعطاء البديل تجاه التغيرات الحاصلة فالعالم أوسع من أن يحصر في قضايا منطقية وتصورات رياضية لا تتوق بالروح الآدمية لشيء من مبتغاها النوعي ، وإن اختلفت النحل بين الوجوديين ومدرسة فرانكفوت وغيرها من التوجهات البنيوية والتفكيكية، فإنها روافد تصب في نهر واحد مبتغاها الخروج إلى بر الأمان جرّاء توحش الحداثة وما صاحبته من استيلاب المعنى وتشيؤ البشرية واغترابها في أعماق الزيف الحضاري الواعد بالجنة الدنيوية، يقول **"أوزفالد شبينجلر" "oswald spengler"**[*]: (**إن عصرا تسود فيه الآلية وتسيطر عليه الاتجاهات اللادينية، لهو عصر تدهور واضمحلال**[2])، كما أن العلم والتقنية ونجاح سلطان الآلة على حساب الإنسان، والتي تغنى بها النهضويون واعتبروها أكبر مكسب حضاري وأنها منقذ الإنسانية من الشقاء أدخلته في حروب أفقدته معنى الوجود، وتزيفت وعودها بالجملة على مصير البشرية، يقول "غوته": (**كل تقدم فكري لا يصحبه تسام روحي فإنه ينذر بالخطر**[3]). ومنه يثبت أنه لم تكن فكرة التصوف بمفهومها الزهدي الجمالي، بعيدة عن الطرح الغربي المعاصر، بل حايث الدعوة إلى التروحن ونبذ المادية، أغلب الأطروحات التي تسعى إلى تلميع

---

[1] بن خلدون، المصدر السابق، ص 19.

[*] أوزفالد شبينجلر" "oswald spengler 1880-1936": فيلسوف ألماني معاصر عرف بتفسيره البيولوجي لسير الأحداث التاريخية في كل حضارة، من أهم كتبه: أفول الغرب، بروسيا والاشتراكية، ساعة الحسم.

[2] أحمد محود صبحي، **في فلسفة التاريخ**، (دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2004، ط4)، ص 245.

[3] المرجع نفسه، ص 245.

الأفكار الحداثية بخلق توازن أكسيولوجي منبثق من تجارب العرفانيين المتعددة. فالعالم باعتباره إرادة إلهية تتجسد في أفعال البشر لا يمكن أن تستغن عن الجميل والروحي الذي يؤسس لعلاقة حميمية تفاضلية لله ولطفه على البشر داخل عالمنا المادي.

3.2 الإختلاف في نوعية العلاج الروحي بين المعاصرين :

كانت دعاوي الفلاسفة بالعودة إلى الدين بمفهومه الذوقي والروحي عنوانا مشتركا للكثير من تيارات ما يسمى ما بعد الحداثة ، مستعينين بفلسفة الجمال كحل بديل للجفاء والتشيؤ. ولكن الصورة لم تتضح والوجهة الممارساتية كانت شبه غائبة في الأجواء المعاصرة ،وغالبا ما كانت اجتهاداتهم محل انتقاد العلمانيين والنهضويين –سواءا في الساحة الفكرية الغربية أو حتى الإسلامية –من خلال موقفهم المعادي لكل ماهو تراثي أو ديني عربون دفاعهم المستميت عن وهم المدنية وقداسة التحضر بالهجوم الدائم على المعتقد الديني .كما ننبه للدور السلبي الذي لعبته التوجهات الدينية الراديكالية وبعض المدعين من الصوفية الذين أساؤوا بمقاصد العلم وغاياته .

حاول كانط أن يردم الهوة الدينية ويلحق التصوف بركب العلوم في نظريته الأخلاقية وتصوره لنظرية المعرفة فعند "كانط" صار التصوف هو (آخر) الفلسفة بشكل أكثر صرامة، هذه الآخرية حددتها تعريفات الفلسفة لذاتها على يد "كانط" والمبادئ التي أرادت الفلسفة النقدية أن تؤسس نفسها عليها...**إن الجذر المؤسس لعقلانية "كانط" النقدية هو الوساطة، وساطة المفاهيم في التجربة المعرفية. الأمر الذي يعني أن التجارب الأخرى تزعم أن المعرفة ممكنة بصورة مباشرة دون وساطة المفاهيم**[1].

بقي التفاخر بالتجريبية ومنتجاتها علميا وفلسفيا عرفا سائدا في أوروبا لقرون، ولكن الجرعة الزائدة منها أدت إلى بطلان الغاية لمستخدميها وانقلاب الموازين من رغبة الإنسان في استحسان العلم ونتائجه، إلى خيبة أمله والخوف من عواقب هذا الأخير، لغياب الهدف المنشود الذي لم يلب له طموحه.

فالعلم يتجه إلى الملاحظة الحسية، ليكون منها فهم العقل للمادة، ثم يقوم هذا الأخير بتجريدها عن طريق قوانين خاصة. هذا يصلح على المادة الجامدة ولكن لا يمكن أن يكون أبدا نفس المنهج لفهم ومعالجة موضوعات الروح البشرية. فالعلم الوضعي، على حد تعبير "**هنري برغسون**" "**henri bergson**"[*] – "**نتاج العقل الخالص**"[2]، وهدفه الأساسي قبل كل شيء أن يجعلنا نتحكم في المادة[3].

فالحياة استدعت نوعا معينا من تكيف الإنسان مع محيطه حفاظا على بقائه، وفرارا من خطر الزوال الذي يهدده في الطبيعة، هذا لا يتم إلا بالحواس والعقل معا، ولا غرابة في الأمر إذ قال برغسون "**أن الإنسان الأول كان صانعا قبل أن يكون**

---

[1] عبد الحكيم أجهر، **الحقيقة وسلطة الاختلاف**، التصوف بوصفه إجابة أخرى عن السؤال الإسلامي، (المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 2019)، ص 24-25.

[*] "هنري برغسون" "henri bergson 1859-1941": فيلسوف فرنسي معاصر عرف بلقب فيلسوف الطاقة الروحية، كما أن فلسفته كانت مؤسسة عن الذود من أجل إنقاذ القيم الروحية، وذلك من جراء الهدم المادي الذي ساد في زمنه من خلال الفلسفة النيتشوية، والماركسية وبعض التيارات الوجودية، من أهم كتبه: المادة والذاكرة، تطور الخلاق، الضحك.

[2] Bergson :l'évolution créatrice. 155e .edition,P.U.F,Paris ,1983.P196.

[3] La pensée et le mouvant 91 e .edition ?P.U.F , Paris.1975.P 35.

حكيما ومفكرا"[1] لأن الإنسان صنع الأدوات الضرورية للعيش ثم راح يطورها تدريجيا بعقله قبل العلم والفلسفة، بل عمل على تحقيق متطلباته البيولوجية من ملبس ومأكل ومأوى، وتحديدا من أجل العيش، والحفاظ على البقاء. وتواصل نشاط العقل على هذه الصورة ولم يتغير فيها اتجاهه. "**وطبيعي جدا أن يكون قد تشكل على نحو معين هو أشد ما يكون ارتباطا بالمادة الجامدة**"[2]، ونجاحه في الطبيعة مهد السبيل لتجاوزها إلى ما بعد الطبيعة.

لذا يخلص برغسون إلى أهمية العلم، والغاية منه صناعة مستلزمات البشر بما يخدمه كذات، وليس صناعة ما يفسد بشريته "**فجوهر الإنسان أنه كان يخلق ويبدع ماديا ومعنويا وحقيقته تمثلت في أنه حيوان صانع**[3]". وقد أقر أن التجربة نوعان : تجربة حية وتجربة آلية، التجربة الحية موضوعها الروح، بما هي عليه من حركة تغير وتطور يراعي فيها الزمان. أما التجربة الآلية فموضوعها الأشياء الثابتة لا يراعي فها الزمان لأنها خارجه عنه.

ليست الحياة وليدة الصدفة كما يزعم الآليون وأنصار النزعة الوضعية و الداروينية، ولا تجربة محسوسة من دون حدوس مكاشفة بل هي وليدة قوة حيوية واحدة ومتدفقة تعرف ديمومة غير منفصلة، تتفجر في كنفها الطاقات الروحية الإبداعية للبشر.ونلتمس من أطروحات كانط واشبنجلر وتوينبي نزعة تتوق إلى العودة لروح الدين وإن اختلفت الوجهة أما عند برغسون فالدعوة إلى التصوف كانت صريحة في مواجهة الآلية عامة خاصة في كتابه "**منبعا الأخلاق والدين والتطور المبدع** ".

4.2. آفة العقل المسدد وتراثية الممارسات الصوفية :

تزامنت الصراعات العقائدية الدائرة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب في زمن أفول الخلافة العثمانية إلى صراعات داخل البيت الإسلامي من دعاة الدولة المدنية والحكم الديمقراطي العلماني ودعاة الدولة القومية المبنية على العرق واللغة –بغض النظر عن وحدة المسلمين الروحية وأبعادها في بناء الحضارة– .وانتهت التشرذمات والإنشقاقات إلى وقوع التقسيم لدويلات تبنت كل واحدة منها مايخدم ولاءها لمعسكرات الغرب سواءا الرأسمالي أو الإشتراكي. وقد صاحبته نزعات دينية متطرفة تعادي الجميع وجعلت من الطرق الصوفية التي كانت السند الأكبر للوحدة الروحية للخلافة مما أدى في النهاية إلى دخول الطرق في ولاءات داخلية وخارجية للحفاظ على وجودها أو الثأر لمعاديها لينتفي الإبداع وتفقد رسالة التربية والسلوك من طرف الكثير من مشائخ الطرق .كما لم نلتمس تجديدا واجتهادا فقهيين بقدر ما أصبحت الصراعات السياسية تذكيها لما يخدم سؤددها .اعتنى **طه عبد الرحمن** [*] بالموضوع في كتابه **العمل الديني وتجديد العقل** بالشرح والتحليل وإعطاء الحلول البديلة ونذكر أهم نقاط الصراع بأسبابها :

يقول طه "**إن العقل المسدد لا تظهر آفاته في الممارسة العقلانية الإسلامية بقدر ماتظهر في الممارسة الفقهية والممارسة السلفية منها**[4] " فلم يكن التصوف وحده بعيدا عن روح التجديد والعلمية بقدر ما نحت التوجهات الراديكالية نفس

---

[1] Ibid.P63.

[2] Ibid . P35 .

[3] Ibid . P90

[*] **طه عبد الرحمن** :فيلسوف مغربي معاصر من مواليد 1944 بالجديدة مهتم بقضايا كبرى في الفكر الإسلامي والعربي المعاصر له مؤلفات عدة نذكر منها العمل الديني وتجديد العقل ،تجديد النهج في تقويم التراث،دين الحياء .

[4] طه عبد الرحمن ، **العمل الديني وتجديد العقل** ، (المركز الثقافي المغربي ، الرباط ، المغرب ، 1997، ط2)، ص 67.

المنحى .ويضيف "**متى علمنا ذلك اتضح لنا أن هاتان الممارستان تشكلان ميدانا متميزا لاختبار منهجية العقل المسدد وتبن حدود هذه المنهجية**[1] " وغالبا ما عجزت الطرق الصوفية عن التعريف بقيمها وتجاوز لآفة **التسيس** التي خيمت على أجواء الفكر الإسلامي حسب طه عبد الرحمن والسبب راجع إلى عدم وجود" **الشيخ المربي**[2] "ودخول الطرق مرحلة "**التبرك**[3] " لهذا يستحيل التأسيس المعرفي للتصوف في ظروف بعيدة عن أعراف العلم وأدبياته .

3.الأسس المعرفية للتوطين الإيجابي للتراث الصوفي

1.3 الإنتقال من زيف التسيس إلى مورد التأنيس : يرى طه أن التسيس هو غير التوعية السياسية ويقف غالبا معارضاومخاصما لكل إصلاح ديني "**فلا يعرف لاالقواعد الأخلاقية ولا المعاني الروحية ولا حقيقة الإستقامة ولا وضيفتها في التقرب ...وأن التسييس يقوم على منطق القوة الذي هو السلطان ...فليس إذن أضر على الإنسان من أن يغتصب المقارب من حق التحليق بسبب الإغترار بالتجريد والإعتقاد في التسييس ، ذلك أنه يستبدل بالتعالي الذي هو تدرج في منازل الروح وتقرب من الحق تعاليا إلحاديا وهو تنقل في مراتب المادة وانقطاع عن الحق ، كما أنه يستبدل بالتأنيس الذي هو تغلغل في القيم الخلقية**[4] " وبهذا نحرر العلم من تراكمات تاريخية وتشوهات فكرية حالت دون المطلوب

2.3خلق تماهي معرفي وتكامل علمي داخل دائرة المعارف الإسلامية والإنسانية:

تمثل طبيعة اختلاف التعاطي مع المعارف الإسلامية حسب نشاط القوى المتلقية إحدى أهم ركائز الفهم الديني، إذ يتبين للمتمعن في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أن الخطاب يختلف حسب درجة المتلقي، والنص القرآني اختلف في الخطاب على حسب القوى والحواس الظاهرة والباطنة، وفي الظاهر يقول تعالى: "**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**[5]"، "**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**[6]".

وفي الباطنة يقول تعالى: "**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور** [7]"، أما في مقام الصفاء بين الله والإنسان يقول: "**إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**[8]"، وقد كان للطرح المتعدد حسب القوى الفهمية المختلفة للبشر سعة للتداول في في المعاني أكثر فأكثر في نسيج الخطاب الديني. وإذا كان الاختلاف ظاهرا في أجوبة المشائخ والعلماء لاختلاف الأحوال والمقامات، فكل أجاب حسب حاله، أو على قدر ما يحتمل مقام السائل فإن مقصد الصلاح ونيل أعلى مقامات القرب الإلهي هي الأساس ، فإن كان مريدا أجاب على ظاهر المذهب من حيث المعاملات، وإن كان متوسطا أجيب من حيث الأحوال، وإن كان عارفا أجاب من حيث الحقيقة، وأظهر ما قال بعضهم (**إن أول التصوف علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة، فالعلم**

---

[1] **المصدر نفسه** ، ص 72.
[2] **المصدر نفسه** ، ص91.
[3] **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها .
[4] **المصدر نفسه** ، ص210-211-212.
[5] سورة الغاشية، الآية: 17.
[6] سورة البقرة، الآية: 44.
[7] سورة الحج، الآية: 47.
[8] سورة الشعراء، الآية 89.

يكشف عن المراد، والعمل يعين على الطلب، والموهبة تبلغ غاية الأمل، وأهله ثلاثة طبقات، مريد طالب، متوسط سائر، ومنته واصل[1]).

ويجمل القول بالتكامل المعرفي في الاسلام ما نبه إليه سيدنا مالك رضي الله عنه، وأطنب فيه الشيخ "أحمد زروق الفاسي" في أهمية التفاعل بين المعارف الإسلامية من أجل بلوغ الحقيقة وثبات اليقين، وهنا ما نقله عن سيدنا مالك رضي الله عنه وأرضاه بقوله: "**من تفقه وتصوف فقد تحقق[2]**". ولكل وقت رجاله وشيوخه المربون كما أشرنا سابقا عند طه وأقره ابن عاشر في متنه إذ يقول :

يصحب شيخا عارف المسالك يقيه في طريقه المهالك

يذكره الله إذا رآه ويوصل العبد إلى مولاه

وفي تعريف "**أبي حفص**" التصوف بقوله: (**التصوف كله آداب، ولكل وقت أدب، وكل حال أدب، وكل مقام أدب، فمن لزم الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الأوقات فهو بعيد من حيث يضمن القرب، ومردود من حيث يرجوا القبول**) خير دليل على ما سبق ذكره وقال أيضا: (**حسن أدب الظاهر عنوان حسن الباطن[3]**).

3.3مستلزمات التوطين الإيجابي للتراث الصوفي:

استخدم الصوفية لغة رفيعة المستوى، جمعت بين أدب جمالي أخاذ ورمز شعري مبدع، كما نجد لزوم العارفين للإشارة نظرا لضيق معنى العبارة، واستخدموا مصطلحات توهم للقارئ في أول وهلة غزلا، ولكن الدائرة كلها تبيان طريق المريد من ربه وعلاقته بالمريدين وشيخه بلغة تستلهم منها النفس رفعة الذوق وطيب الخاطر، ونظرا لمغنم الصوفية على غيرهم بعلم استشفاء النفوس وتزكيتها لأمر الملك القدوس، فكان لزاما عليهم توضيح الرؤية ومعلمة الداء وتقديم الدواء، أو بتعبير آخر تشخيص ومعالجة.

– المعنى اللفظي للكلمة التاء: التوبة، وهي صنفان توبة ظاهر وتوبة باطن، وهي (التقوى).

– **الصاد:** صفاء القلب. /صدق العمل

– **الواو:** الولاية/ الوفاء/ الورع.

– **الفاء:** فداء وفضل، فقر إلى الله.

***شغف الأنف الأنفس ومراد الهوى:**

يرى **ابن مسكويه**: (**أن قوى النفس تتولد عنها منظومة الفضائل وتنقسم إلى ثلاثة أقسام تتمياز به عن القوى:**

I "القوة" التي يكون بها الفكر والتمييز والنظر في حقيقة الأمور.

II "القوة" التي يكون بها الغضب والنجدة والإقدام والشوق إلى التسلط والترفع، وضروب الكرمات.

III "القوة" التي تكون بها الشهوة وطلب الغذاء، والشوق إلى الملاذ التي في المآكل والمشارب والمناكح وشروب الذات الحسية المتباينة.[1]

---

[1] السهروردي أبي اسحاق، **آداب المريدين**، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2013)، ص 19.

[2] أحمد زروق الفاسي، المصدر السابق، ص 25.

[3] السهروادي أبي اسحاق ، **عوارف المعارف**، (دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2017)، ص 68.

ويعلم من ذلك أن بعضها إذا قوي بالآخر، ربما أبطل إحداهما فعل الأخرى، فربما جعلت نفوسا، وربما جعلت قوى النفس واحدة، والنظر في ذلك ليس يليق بهذا الموضع، وأنت تكتفي في تعلم الأخلاق بأنها قوى ثلاثة متباينة، تقوى إحداهما وتضعف حسب المزاج والعادة والتأليف.[2]

يسعى المتصوفة إلى خلع الالتباس الأخلاقي الحاصل بين مراتب الأنفس ومقاماتها في طريق التزكية وكلها هادفة للارتقاء في مراتب الكمال (**ولقد سعت إلى روحنة الأخلاق للإلقاء نور العقل على الفضائل...ما يعني العيش أخلاقيا بطريقة روحية تتعارض مع النفاق والتواضع للباطل، والإحسان المتفاخر وما شابه.**[3]).

وهنا يأتي دور العارف أو الشيخ المربي في هيكلة عرى النفس وترويضها من أجل الرقي في سلم الفضائل على حسب الحال والهيولة، وقد شخص بعض العارفين أهم العيوب طبقا لدرجة النفس وحالها مع الله، والمخطط التالي يبين ذلك:

النفس	الصفات
النفس الأمارة	البخل، الحرص، الأمل، الكبر، الشهوة، الحسد، الغفلة.
النفس اللوامة	اللوم، الفكر، القبض، العجب، الاعتراض.
النفس الملهمة	السخاوة، القناعة، العلم، التواضع، التوبة، الصبر، تحمل الأذى.
النفس المطمئنة	الجود، التوكل، الحكمة، العبادة، الشكر، الرضا.
النفس الراضية	الزهد، الإخلاص، الورع، ترك ما لا يعني، الوفاء.
النفس المرضية	حسن الخلق، ترك ما سوى الله، اللطف بالخلق، التقرب إلى الله، التفكر في عظمته والرضا بما قسم
النفس الكاملة	جميع ما ذكر من الصفات الحسنة[4]

ويبين ابن سينا وهو متخصص في أمراض النفس والجسد معا، محنة تقلبات الأنفس من أجل الرقي إلى عالم الفضائل، أين يكون العاقل بين رياضة التطهر من رعونة الهوى وحب نيل أعلى مقامات الفضائل الإلهية، وهنا تتحقق حقيقة صعوبة الوصول والترقي نظرا لمشكلة للنفس بذاتها، وفي المقطع التالي لقصيدة العينية لابن سينا إشارة واضحة الدلالة إلى ما أشير إليه قبلا:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات وتـــعـزز وتمنـــع
وصلَتْ على كُرْه إليك وربمـا كرهت فراقك وهـي ذات توجـع
وغدت تغرد فوق ذروة شــاهق والعلم يرفع كلَّ من لـم يـرفـع
فلأي شيء أهبطت من شـامخ عال إلى قعر الحضيض الأوضع؟

---

[1] ابن مسكويه، **تهذيب الأخلاق**، (منشورات الجمال، بيروت، لبنان، 2011)، ص 246-247.

[2] المصدر نفسه، ص 247.

[3] سيد حسين نصر، **فردوس الحق**، الرؤية والوعد الصوفيان في التعاليم الصوفية الإسلامية، تر: ناتالي الخوري غريب (دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2019)، ص 160-161.

[4] محمد بن بريكة، المرجع السابق، ص 327.

إن كان أهبطها الإله لحكمة طويت على الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية في العالمين فخرقها لم يرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع[1]

بعد تشخيص العارف لأهواء النفس وعيوبها وإبراز حجبها المانعة لمقامات الأنس والقرب، يخصص للمريد طريقة علاجية حسب المقام والقدوة، بداية من الثبات على الفرائض والمواضبة على السنن (الذكر، القيام، الصيام...) وأكبر ما يلزم به العارفون به مريديهم مداولة الأذكار، على حسب القدرة والمقام، لقوله تعالى: "**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**[2]"، **وقوله أيضا: " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**[3]"، ، أما عن حالة الشيخ حاله مع المريد فيغلب عليه الجمال والبسط ما يلين له رعونة النفس واختراق الهوى، حتى يترسخ بلسم المحبة في قلبه، وفي آداب الشيخ: (**ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون ويمنحون من أنواع المنح...**[4]) ويلخص صاحب قوت القلوب آفات النفس ما يلي: (**فجملة وصف النفس معنيين: الطيش والشره، فالطيش عن الجهل والشره عن الحرص ...والحرص والطمع هما اللذان كان سببا إخراج آدم عليه السلام من الجنة، لأنه طمع في الخلود، فحرص على الأكل، وكان ذلك من الجهل، فكانت معصيته سبب عمارة الدنيا، وسارت الطاعات سبب عمارة الآخرة، فلذلك قيل حب الدنيا رأس كل الخطيئة، فصار الزهد أصل كل طاعة...... ويقول كذلك....والأفضل مجاهدة النفس والعدول عن امضائها وحبس الجوارح عن السعي فيها**[5]).

يتم التحقق عند العارفين بالانتقال من حالة إلى حالة مع توضح الإدراكات من خلال قوى العقل الباطنة التي تؤدي إلى توجيه المريد نحو غايته في الكمال، وتبدأ أصل هذا الاجتهاد بترسيخ الفكرة في العقل، ثم تجسيدها في مراتب الترقي، يقول "سيد حسين نصر": (**فثمة حاجة إلى أن نتعلم كيف التحكم بالعقل من خلال التأمل، وكيفية التحكم بالجسد من خلال التنفس الصحيح والوضعية الصائبة، وكيف ندرك الحقيقة الإلهية من خلال الأسماء الموحى بها، من خلال الحقيقة الكاملة في جوهر كياننا، وكيف نهرب من متاهات النفس، هذه النفس تتحول بطريقة كيميائية فتتحد مع الروح، وكيف يتم إدراك أجسادنا المقصولة في أعمق مستويات الوجود، وأعلى مراتب الوعي، ومواضيع أخرى عديدة، قد ينظر المرء من الله أن يرفعه ببساطته إلى حضرته، وهذا إمكان متبع من قبل بعض العرفانيين.**[6]).

---

[1] القصيدة العينية لابن سينا.

[2] سورة النازعات، الآية: 40-41.

[3] سورة العنكبوت، الآية: 69.

[4] أحمد بن المبارك، **كتاب الابريز**، (شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2012)، ص 369.

[5] أبي طالب المكي، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، ج1، تح: محمود ابراهيم محمد رضوان، (مكتبة الثقافة الدينية، 2017، دط)، ص345.

[6] سيد حسين نصر، المرجع السابق، ص 161.

4.3 .التعريف بمفاخر الرياضة الصوفية وأثرها القيم للروح البشرية :

العلم في الأصل يتكون من ركائز أساسية لا يمكن أن يقوم من دونها، وتجتمع فيما يلي: موضوع منهج مصطلح ثم غاية، ولكل علم هدفه أو ثمرة على حسب المؤسس والناظر، ومقصد العارف طهارة النفس من أدران وعبودية الهوى ووسوسة الشيطان والتخلي عن الحسد والكبر اللذان كانا سبب البلاء الأول للبشرية، والتحلي بقيم المحبة والتواضع لله عز وجل اللذان هما سبيل النجاة في الحياة الأولى والآخرة، ويركز المتصوفة على الذكر والستر ولو بعد بلوغ المقام خوفا من السلب بعد الوهب مستدلين بذلك بأكثر من مثال وعلى رأسها لعنة إبليس الذي كان سيدا على الملائكة، وهنا قول العارف "عبد العزيز الدباغ" في هذا الصنف من البشر: (**لا يجد حلاوة الأخرة رجل يحب أن يعرف الناس... ولا تطمع في منزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس**[1])، وفيها معنى من معاني قدس الله سره.

وكل يأخذ على حسب الطاقة والقدرة والصدق، ونجد أن جلّ المتصوفة يركزون على النية والمحبة على أنها أساس الاستمداد النوراني، يقول ابن عطاء الله السكندري: (**فالفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له**[2]) ويقول كذلك (**ورود الأمداد بحسب الاستعداد، وشروق الأنوار حسب صفاء الأسرار**[3])، أما الترقي في المقامات وبلوغ حال الرجال الكُمَّل فيلخصه قوله: (**قوم تسبق أنوارهم أذكارهم، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم، قوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم، وقوم لا أذكار لهم ولا انوار، ونعوذ بالله من ذلك**[4])، وتوجد إشارة فيها للصدق في الذكر القلبي الخالص إذ يقول: (**ذاكر ذكر ليستنير قلبه، وذاكر استنار قلبه، فكان ذاكرا والذي استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدي وبنوره يقتدي**[5]).

وإذا كان لكل جسم طاقة ولكل نفس فاقة ولكل فاقة دواء، ولكل وعاء دواء وبلسم الامتلاء، ومنه سر انتقال من مقام إلى مقام، ولكل مقام مقال، ومنه سعود نيل الفضائل والخصال، وسر المعراج في القيم ومحاسن خلق الرجال، وإن كان الظاهر الاختلاف في الفضائل، فذلك لما سبق ذكره، على حسب النيل والمقصد،كما يقول الشيخ الأكبر: (**حسنات الأبرار سيئات المقربين**[6]).

السعي للخلود وبلوغ أسمى الكمالات الإنسانية مطمح مغروس في الذات ودافع للانعتاق من ظلمانية الحس وتقلبات الهوى فالذات المتحررة بالمفهوم الصوفي تسعى لتملك وانبثاق القوى الكامنة في النفس وتحقيق حيويتها والوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل أين يجد (**مثاله في الأنبياء والأولياء العظام ،ومهمته هي الإلهام والمبادرة .أن تكون إنسانا حقا ،هو أن تدرك بمعونة أولئك الذين سبق أن تحققوا في مرتبة الكمال ،أن حقيقة الإنسان الكوني موجودة بالقوة فينا جميعا .والتحقق يعني الوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل .أي العودة إلى حالتنا الفكرية ،وأخيرا إلى حقيقتنا في الله ،بهداية الواصلين إلى مرتبة أو**

---

1 أحمد ابن المبارك، المصدر السابق، ص 368.

2 ابن عطاء الله السكندري، **الحكم العطائية**، (بيت الحكمة، الجزائر، 2010)، ص 64.

3 المصدر نفسه، ص 32.

4 المصدر نفسه، ص 32.

5 ابن عطاء الله السكندري، المصدر السابق، ص 62.

6 محي الدين بن عربي، **الفتوحات الربانية في شرح التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية**، ج1، تح: د. ابراهيم عاصم الكيالي، (مطبعة كتاب ناشرون، بيروت، لبنان، 2015، دط)، ص 130.

أخرى من مراتب الإنسان الكامل[1]). يبقى الهدف من كل سلوك في الطريق، وهي فكرة ناشئة ممزوجة بالرجاء نحو تحقيق هيكل الكمال في الاختبار الروحي، إذ أنه إقبال على التطهر التام من كل شبيهة لا تدخل الحضرة الإلهية، وكل تربية أو سلوك إلا وهو يدور في هذا السياق.

والجانب الباقي من الإنسان هو الروح، وهو بالضبط موضوع العمل الروحي، وهذا هو "الرصاص" الذي تحوله إلى "ذهب"، والبدر الذي يجب أن يقترن بالشمس، وهو في الوقت نفسه التنين الذي يقتضي أن يذبح حتى يتمكن "البطل" من الوصول إلى "الكنز"،... وهذا معناه تحول جذري في الروح أتيح لها عن طريق بركة الوحي والولاية[2].

4. خاتمة:

تحتاج المدارك البشرية إلى نظرة تبصرية ثاقبة في كل ما تصبوا إليه الدراسات المتوارثة، و ان طال الأمد أو قرب الموعد فإن تموضع العلوم ووضع مختلفها في المحك مما يجعلها تركن إلى قواعد الفهم الصحيح و السلوك القويم الذي من خلاله نؤسس لرؤية جديدة بعيدة عن تهافتات في المقاصد وهفوات مؤدية إلى المفاسد.

لعل الهدف الأكبر من كنه الدراسات التحليلية النقدية هو تحرير التصوف من الطرح المؤدلج ووضعه في سياقه التربوي و الروحي مع تأصيل قيم المعرفة الصوفية بتوضيح الأدوار الحضارية لنفائس العلم ومستخدميه من قادة الأمة وعلمائها.

تعد محكمة الوقائع التاريخية خير شاهد على المنجزات والاخفاقات والمادة المنبثقة من مشهد الحق والطابعة للبصمات في سير الأحداث كما هو كشف للنقاب عما كان قد غفله السابقون بقصد أو بغير قصد ومعركة التسويق للوعي البناء والتشرب بروح القيم من أجل استشفاء خواطر الأجيال الناشئة التي تمثل الرهان المنوط به للتحقق و الصورة اللائقة بهذا العلم.

كثيرا ما أُغْرِقَ في النقد دون الحد من اكتناز الروح البناءة والهادفة إلى تصالح الفرد مع الموروث الروحي للأمة فالواجب تحرير الدراسات من التوصيف الذي يخيم عليه البعد عن الغاية ووضع البحث العلمي في طريق العرفان بما يؤسس لبنية معرفية تنبثق من البصائر وقوة البرهان النابع من جوهر العقل مع موضوعية النقد وبنائيته.

يستدعي تظافر جهود المنشغلين بهذا العلم من أجل وضع نموذج يوجه الدارسين نحو قواعد العلم الصحيح الذي يسعى إلى تزكية الفرد واستقامة سلوكه مع خلق تماهي معرفي علمي صادق مع المشاهد التاريخية.

لابد من النظر إلى العلم بلغة براغماتية مفادها الاستنفاع من التجارب الروحية للعارفين والاستشفاء بالقيم للسالكين، مع أن تصويب الوجهة للباحثين تعد حجر الزاوية لكل مبتدئ.

يتوق كل شغوف للمعرفة الحقة وجوب إعطائه الصورة المؤسسة للفهم الحاذق وجعله ممتهنا بالغايات والاستئناس بالمقاصد بجعل الذات الانسانية تتواطن مع فكرة المسؤولية الروحية تجاه زيف بعض التيارات القائمة على الترصيص الثقافي والتضايف في الطرح متخذة مطية حراسة الثوابت والتملك صولجان الحقيقة في هاته الأمة الذريعة لفرض تخلف الدراسات الأكاديمية ومراكز البحث، مع رفض الوصاية الزائفة التي تسببت في تغني بعض النخب بما ليست أهلا به.

[1] سيد حسين نصر، المرجع السابق، ص 32.

[2] سيد حسين نصر، **الصوفية بين الأمس واليوم**، تر: كمال خليل اليازجي، (دار المتحدة للنشر، بيروت، لبنان، 1975)، ص 84-85.

يتضمن الطرح الديني من جانبه الروحي إعادة الحيوية وتنشيط نظرة الفرد من جديد حول تلميع المعرفة الوجدانية وتقييم الحقائق المتاحة تجاه ما يخدم الائتمان على كنه الرسائل السماوية، ثم إن تطهير أجواء التدين من الممارسات اللاأخلاقية التي تسببت منذ قرون لزوال المعنى من جو الاعتقاد المعاصر يعد أكثر من ضرورة، لهذا فإن حيوية العارفين وخطتهم هي خلق تكامل معرفي بين قوى الاستيعاب الثلاث عقل قلب روح.

كما لا يخفى علينا أن كبار العارفين سعوا إلى استشفاء النفوس ومكاشفة المعنى من خلال الرياضات التزكوية التي تستوحي بلسمها من عمق النصوص المقدسة وبهذا يصبح المتصوف و العارف –و إن اختلف الطريق و المسلك- منوطا له بتجربة الانعتاق الذاتي و تحقيق التحرر من أدران الشهوة وسلطان النفس ثم إن الدراسة الانسانية والاجتماعية لا تنفصل البتة عن هذا الهدف. بل هو المسعى في تضايف مدلولات العلوم الاجتماعية والإنسانية في موفور القضايا والامتثال الطوعي لباب المنهج العرفاني الذي يحقق الارتكاز على الرياضات الروحية من أجل الغنيمة بأسمى قيم البشرية.

5. قائمة المراجع:

أولا: المصادر:

1. ابن عطاء الله السكندري، **الحكم العطائية**، (بيت الحكمة، الجزائر، 2010).
2. ابن مسكويه، **تهذيب الأخلاق**، (منشورات الجمال، بيروت، لبنان، 2011).
3. أبي العباس أحمد زروقي الفاسي، **قواعد التصوف وشواهد التعرف**، (دار المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب، تونس، 2015).
4. أبي طالب المكي، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، ج1، (تح: محمود ابراهيم محمد رضوان، مكتبة الثقافة الدينية، 2017).
5. أحمد بن المبارك، **كتاب الابريز**، (شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2012).
6. بن خلدون، **المقدمة**، (دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 2004).
7. السهروادي أبي اسحاق ، **عوارف المعارف**، (دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2017).
8. السهروردي أبي اسحاق، **آداب المريدين**، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2013).
9. محمد بن عيسى الترمذي، **سنن الترمذي**، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996).
10. محي الدين بن عربي، **الفتوحات الربانية في شرح التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية**، ج1، تح: د. ابراهيم عاصم الكيالي، (مطبعة كتاب ناشرون، بيروت، لبنان، 2015).

ثانيا المراجع:

11. أحمد محود صبحي، **في فلسفة التاريخ**، (دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2004).
12. سيد حسين نصر، **الصوفية بين الأمس واليوم**، تر: كمال خليل اليازجي، (دار المتحدة للنشر، بيروت، لبنان، 1975).

13. سيد حسين نصر، **فردوس الحق**، الرؤية والوعد الصوفيان في التعاليم الصوفية الإسلامية، تر: ناتالي الخوري غريب (دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2019).

14. عبد الحكيم أجهر، **الحقيقة وسلطة الاختلاف**، التصوف بوصفه إجابة أخرى عن السؤال الإسلامي، (المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 2019).

15. محمد بن بريكة، **موسوعة الحبيب للدراسات الصوفية، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان**، (دار المتون للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006).

16. طه عبد الرحمن ، **العمل الديني وتجديد العقل** ، (المركز الثقافي المغربي ، الرباط ، المغرب، ط2،1997).

17. مجدي محمد إبراهيم، التجربة الصوفية "بحث في تحقيق العلاقة بين اعتقاد الثنائية ورؤية الواحدية في تجربة العارف الروحانية"، (مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2003).

ثالثا: المراجع باللغة الفرنسية:

18. Bergson :**l'évolution créatrice**. 155e . dition ,P.U.F,Paris ,1983.
19. Bergson :**La pensée et le mouvant** 91 e .Edition ?P.U.F , Paris.1975.